فضائل الأمة

بين الكتاب والسنة

بقلم

الدكتور أبو عبد الله أبو سريع بن محمد

الحمد لله رب العالمين ، حمداً يليق بذاته ، وتواضعاً يليق بكبريائه ، وخضوعا يليق بعظمته ، سبحانك اللهم ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير.

والصلاة والسلام على أفضل الرسل وأكرمهم وخاتمهم وأعظمهم محمد ابن عبد الله وعلى آله وأصحابه وأتباعه ، الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون .

أما بعد :

فالفضل والفضيلة : ضد النقص والنقيصة ، والفضيلة : الدرجة الرفيعة فى الفضل ، والجمع فضائل ، والفضال والتفاضل : التمازى فى الفضل ، والتفاضل بين القوم ، أن يكون بعضهم أفضل من بعض[1] .

والأمة : الجماعة ، قال الأخفش : هو فى اللفظ الواحد ، وفى المعنى جمع ه

---

(١) اللسان والمعجم الوسيط (فضل) .

وقوله تعالى : (كنتم خير أمة) قال الأخفش : يريد أهل ملة ،أى كنتم خير أهل دين[1] .

وقد جرت سنة الله - سبحانه - أن يفضل بعض الأشياء على بعض .

ففضل بعض الملائكة على بعض ، قال تعالى :

(الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس)[2] .

وفضل بعض الرسل على بعض ، قال الله - عز وجل - :

(تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض)[3] .

وفضل بعض الشهور على بعض ، يقول الله - سبحانه - : (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم)[4] .

ويقول - جل وعلا - :

(شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن)[5] .

وفضل بعض الأيام على بعض ، يقول - عز من قائل : -

(يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله)[6] .

---

(١) مختار الصحاح (أمم) .

(٢) سورة الحج بعض الآية : ٧٥ .

(٣) سورة البقرة بعض الآية : ٢٥٣ .

(٤) سورة التوبة بعض الآية : ٣٦ .

(٥) سورة البقرة بعض الآية : ١٨٥ .

(٦) سورة الجمعة بعض الآية : ٩ .

ويقول الرسول - صلى الله عليه وسلم :

(فهذا يومهم الذى اختلفوا فيه ، فهدانا الله إليه)[1] .

فهو خير يوم طلعت عليه الشمس ، فيه خلق آدم - عليه السلام - وفيه دخل الجنة ، وفيه خرج منها[2] .

وفضل بعض الساعات على بعض .

عن أبى هريرة قال : قال أبو القاسم - ﷺ - « إن فى الجمعة لساعة لا يوافقها عبد مسلم قائم يصلى يسأل الله خيراً ، إلا أعطاه الله إياه »[3] .

وقال تعالى : (والمستغفرين بالأسحار)[4] .

وفضل بعض الأمكنة على بعض ، يقول - عز وجل - (فول وجهك شطر المسجد الحرام)[5] .

وقال - ﷺ - « لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى »[6] .

كما فضل جنس الإنسان على كثير من المخلوقات ، يقول - سبحانه - :

(ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا)[7] .

---

(١) البخارى كتاب الجمعة .

(٢ ، ٣) البخارى ومسلم كتاب الجمعة والمسند ٢/٢٣٠ .

(٤) سورة آل عمران بعض الآية ١٧ .

(٥) سورة البقرة بعض الآية : ١٤٤ .

(٦) البخارى كتاب الصلاة فى مسجد مكة باب ١ ، ٦ ومسلم كتاب الحج حديث : ١٥ .

(٧) سورة الإسراء الآية : ٧٠ .

وفضل بعض نوع الإنسان على البعض الآخر ، قال الله تعالى :

(ولا تتمنوا مافضل الله به بعضكم على بعض)[1] .

كما فضل بعض الأمم على بعض ، يقول الله - سبحانه - مخاطبا أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - : (كنتم خير أمة أخرجت للناس)[2] .

من هذا المنهج السماوى والتشريع الإلهى ترى أن التفضيل إما لأمر مذكور وشرط مشروط ، وإما منة من الله - عز وجل - فمثلا : عندما فضل الله - سبحانه - بعض الرسل على بعض ، فذلك تبعاً لما ألقى على كاهل هذا البعض من أعباء الرسالة ومشاق الدعوة ، وتحمله من أذى قومه مالا وجد من غيره ، وفى ذلك يقول الرسول - ﷺ - « ما أوذى نبى مثل ما أوذيت قط »

وعندما فضل الله - عز وجل - هذه الأمة على سائر الأمم ، فذلك لجمع من الأمور سيبين عند الحديث عن كل فضيلة من فضائل هذه الأمة .

هذا ، وقد وسم الله - سبحانه وتعالى - هذه الأمة بسمات ست ، إليك بيانها .

١ - يهدون بالحق وبه يعدلون .

٢ - شهداء على الناس .

٣ - ما جعل الله عليها فى الدين من حرج .

٤ - رفع عنها الخطأ والنسيان .

٥ - رفع عنها عذاب الاستئصال .

٦ - تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله .

---

(١) سورة النساء بعض الآية : ٣٢ .

(٢) سورة آل عمران بعض الآية : ١١٠ .

وسأتحدث عن كل سمة من هذه السمات بشيء من الإسهاب فأقول :

السمة الأولى : (يهدون بالحق وبه يعدلون).

يقول الله تعالى : (ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون)[1] .

يقول الخازن عند تفسيره لهذه الآية : قال ابن عباس : يريد أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - وهم : المهاجرون، والأنصار، والتابعون لهم بإحسان ، قال قتادة : إن النبي - ﷺ - كان إذا قرأ هذه الآية قال : هذه لكم ، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون)[2] .

وروى ابن جريح عن النبي - ﷺ - أنه قال : « هي لأمتي ، بالحق يأخذون وبالحق يعطون »[3] وفي الطبري : بالحق يقضون وينصفون الناس، وذكر عن ابن جريح : بالحق يأخذون ويعطون ويقضون[4] وبالمقارنة بين الوصفين ، والنظر بين السمتين أرى وترى معي أنهما ليسا في مقام واحد ، إذ قال - سبحانه - في شأن قوم موسى - عليه السلام : (ومن قوم موسى أمة) فالمعنى - والله أعلم - ومن بعض قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون .

بينما قال - جل وعلا - في شأن أمة محمد - ﷺ - (ومن خلقنا أمة) فكأن هذا الوصف ، لبعض أمة موسى - عليه السلام - ولكل أمة محمد ﷺ ولذلك قال الرسول ﷺ عندما نظر لمستقبل أمته - لا تزل من أمتي أمة قائمة

---

(١) سورة الأعراف الآية : ١٨١ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٥٩ .

(٣) لباب التأويل ٢/١٥٢ .

(٤) الطبري ٩/١٢٥ ط الحلبي ج ٥ .

بأمر الله ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم ، حتى يأتى أمر الله ، وهم على ذلك[1] .

ولم يقل - صلوات الله وسلامه عليه - لا تزال أمتى قائمة بأمر الله .

فمن هذا نعلم ، أن الله - عز وجل - وسم هذه الأمة بسمة أنهم دعاة للحق به يأخذون ، ومنه يعطون ، ومن منطلقه يحكمون .

ولم تحتل هذه الأمة مكانتها ، ولم تسيطر على مكانها ، إلا يوم أن كانت موسومة بتلك السمة ، ومعروفة بهذه الصفة ، حيث كانت وقتئذ من جند الله ، وقد قال تعالى : (وإن جندنا لهم الغالبون)[2] وكانت فى هذه الحقبة من حزب الله ، وحزب الله هم المفلحون .

وساعة أن تمخلت من سمتها ، وحاولت التخلى عن صفتها ، ساعة أن أصابها ما أصابها وحل بها ما حل ، قال تعالى : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم)[3] .

السمة الثانية : (شهداء على الناس) :

يقول الله تعالى :

(وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً)[4] .

ويقول جل وعلا - : (ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس)[5] .

---

(١) المسند ٢/٣٢١ .
(٢) سورة الصافات الآية : ١٧٣ .
(٣) سورة الشورى بعض الآية : ٣٠ .
(٤) سورة البقرة بعض الآية : ١٤٣ .
(٥) سورة الحج بعض الآية : ٧٨ .

أى منحة أسمى ، وأى فضيلة أعظم ، من أن يجعل الله هذه الأمة قوامة على الأمم قبلها ، حاكمة بينها وبين رسلها ، منعوتة بعملها وعملها واتزانها فى أمورها كلها .

أخرج الإمام أحمـــد وغيره عن أبى سعيد قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يجىء النبى يوم القيامة ومعه الرجل ، والنبى ومعه الرجلان ، وأكثر من ذلك فيدعى قومه فيقال لهم : هل بلغكم هذا ؟ فيقولون : لا ، فيقال له : هل بلغت قومك ؟ فيقول : نعم ، فيقال له : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فيدعى محمد وأمته ، فيقال لهم : هل بلغ هذا قومه ؟ فيقولون : نعم ، فيقال : وما علمكم ؟ فيقولون : جاء نبينا - ﷺ - فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا[1] .

فذلك قوله تعالى :

(وكذلك جعلناكم أمة وسطا) .

وفى رواية : فيؤتى بمحمد - ﷺ - فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بعدالتهم .

وذلك قوله - عز وجل - (ويكون الرسول عليكم شهيدا) .

يقول السيوطى : أخرج ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، عن جابر بن عبد الله عن النبى - ﷺ - قال : أنا وأمتى يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق ، ما من الناس أحد إلا ود أنه منا ، وما من نبى كذبه قومه ، إلا ونحن نشهد أنه بلغ رسالة ربه[2] .

يا لها من درجة ، ويا حظها من أمة ، ويا سموها من مكانة ، ويا عظمه من مكان ، ذلك الذى جعلها ندا للملائكة والأنبياء .

---

(١) البخارى كتاب التفسير عن أبى سعيد الخدرى بلفظ يدعى نوح .

(٢) الدر المنثور ١/١٤٤ ، وابن كثير ١/٤٢١ .

يقول أبو حيان : وقال ابن دريد : الأشهاد أربعة ، الملائكة بإثبات أعمال العباد ، والأنبياء ، وأمة محمد ، والجوارح[1] .

ثم يقول : وأما كون شهادة الرسول عليهم ، سبباً لجعلهم خياراً ، فظاهر أيضاً ؛ لأنه إن كانت الشهادة بمعنى التزكية ، أو بأى معنى فسرت شهادته ، ففى ذلك الشرف التام ، حيث كان أشرف المخلوقات هو الشاهد عليهم .

ومنه نعلم :

أنها أمة وهبها الله من فيضه ما لم يهبه أحداً من العالمين ، ومنحها من جوده ما لم يمنحه سوى المرسلين ، فكانت جديرة بهبة ربها ، خليقة بمنة خالقها .

يقول السيوطى : أخرج الفريابى ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن أبى حاتم ، عن كعب قال : أعطيت هذه الأمة ثلاث خصال لم يعطها إلا للأنبياء ، كان النبى يقال له : بلغ ولا حرج وأنت شهيد على قومك ، وادع أجبك ، وقال لهذه الأمة : ما جعل عليكم فى الدين من حرج ، وقال : لتكونوا شهداء على الناس ، وقال : ادعونى أستجب لكم[2] .

وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم ، أن الأمم يقولون يوم القيامة : والله لقد كادت هذه الأمة أن يكونوا أنبياء كلهم ، لما يرون الله أعطاهم[3] .

وبهذا نعلم ، أن تلك الأمة مفضلة على سائر الأمم ، وأن رسولها أفضل الرسل وخاتمهم ، وأن الله من عليها بدين هو خير الأديان وأكملها ، وأعظمها ،

---

(١) البحر المحيط ١/٤٢١ .
(٢) الدر المنثور ١/١٤٤ .
(٣) جامع البيان عن تأويل آى القرآن ٢/٨ .

وأيسرها ، وأقومها ، واوضحها ، وأن الله جعلها أمة وسطاً لتكون شاهدة على الناس ويكون الرسول عليها شهيداً .

يقول السعدى : فلهذه الأمة من الدين أكمله ، ومن الأخلاق أجلها ، ووهبهم الله من العلم والحلم والعدل والإحسان ما لم يهبه لأمة سواهم[1] .

ولكن هذه الفضيلة ، ليست ألفاظاً تتلى ، ولا عبارات ترددة ، ولا تاريخاً يفتخر به ، وإنما هى العلم النافع ، والعمل الصالح ، فبهما كانت تلك الأمة وسطاً ، وبهما كانت شهيدة على الناس ، ولولاهما ما كانت وسطاً ، وما صح رقيها إلى درجة الشهادة .

يقول السيوطى : أخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن حيان ابن أبى جبلة قال : بلغنى أنه ترفع أمة محمد على كوم بين يدى الله ، تشهد للرسل على أممها بالبلاغ ، فإنما يشهد منهم يومئذ ، من لم يكن فى قلبه إحنة[2] على أخيه المسلم[3] .

وأخرج مسلم ، وأبو داود ، والحكيم الترمذى عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لا يكون اللعانون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة »[4] .

ويقول القاسمى : إن قيل : هل أمته شهود كلهم أم بعضهم ؟ قيل : كلهم

---

(١) تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان ١/٧٦ .

(٢) الإحنة : الحقد ، وجمعها إحن ـ مختار الصحاح (ا ح ن) .

(٣) الدر المنثور ١/١٤٤ .

(٤) مسلم كتاب البر والصلة عن سويد بن سعيد وعن أبى بكر بن أبى شيبة وأبو داود كتاب البر والصلة عن هارون بن زيد .

ممكن من أن يكونوا شهداء ، وذلك بشريطة أن يزكوا أنفسهم بالعلم والعمل الصالح ، فمن لم يزك نفسه ، لم يكن شاهداً ومقبولا ؛ ولذلك قال تعالى : (قد أفلح من زكاها)[1] .

ويقول الشيخ محمد عبده : إنما يتحقق لكم وصف الوسط ، إذا حافظتم على العمل بهدى الرسول ، واستقمتم على سنته ، وأما إذا انحرفتم عن هذه الجادة فالرسول بنفسه ، ودينه ، وسيرته ، حجة عليكم بأنكم لستم من أمته التى وصفها الله فى كتابه بهذه الآية[2] .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « يرد على يوم القيامة رهط من أصحابى - أو قال من أمتى - فيحلؤون عن الحوض فأقول : يارب أصحابى ، فيقول : لا علم لك بما أحدثوا بعدك ، ارتدوا على أعقابهم القهقرى ، فيحلؤون »[3] .

وروى هذا الحديث عن أنس ، وزاد فيه ، فأقول : سحقاً لمن بدل بعدى. وإذا كان الله - عز وجل - قد أنعم علينا بمقام العدالة ، وولانا منصب الشهادة ، فماذاك إلا لأننا الأمة الخاتمة للنبى الخاتم .

يقول الشيخ إسماعيل حقى : قال بعضهم : جعلنا - سبحانه وتعالى - آخر الأمم تشريفاً لحبيبه وأمته . . . ثم قال : وأيضاً جعلنا آخر الأمم لنكون يوم القيامة شهداء على جميع الأمم[4] .

---

(١) محاسن التأويل ١/٢٨١ ، سورة الشمس الآية : ٩ .

(٢) المنار ٦/٦ .

(٣) البخارى فى الشرب عن محمد بن بشار ومسلم فى فضائل النبى ﷺ عن عبد الرحمن الجمحى .

(٤) روح البيان ١/٢٤٨ .

فالله سبحانه قد جعلنا آخر الأمم زماناً ، وأولهم درجة ومكانة ، يقول الرسول ﷺ : « نحن الآخرون الأولون »[1] .

ولتعلم هذه الأمة ، أنه إذا كان الوقت قد حان ، والأوان قد آن ، أن لا تكون أمة وسطاً ، فما ذاك إلا بما صنعته أيديها ، واقترفته جوارحها ، وانطوت عليها أفئدتها ، وصدق الله العظيم إذ يقول : (وإن عدتم عدنا)[2] . ويقول سبحانه وتعالى : (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)[3] .

فما عليه الأمة الآن من ضعف في العدة والعتاد ، وهون على الأعداء ، وتفريق في الكلم ، وتشتيت في الشمل ، وعدم وجود رأى عام مسلم يقاوم ويرسى — كما كان من قبل — إنما هو محصلة حتمية لما وصلت إليه من التخلى عن خصائصها التى خصها الله بها وهى الأمة العالمة العاملة الشاهدة على غيرها من الأمم .

قال رسول الله ﷺ : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل : ومن قلة نحن يا رسول الله ؟ قال ﷺ : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، وسينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن . قال قائل : يارسول الله ، وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت »[4] .

---

(١) البخارى — كتاب الجمعة عن أبى هريرة .

(٢) سورة الإسراء آية : ٨ .

(٣) سورة الرعد آية : ١١ .

(٤) رواه أبو داود فى سننه ، والبيهقى فى دلائل النبوة عن ثوبان ، وتداعى أصله تتداعى أى تجتمع ويدعو بعضها بعضاً لسلب ملككم كما تتداعى الأكلة —

ولتضع هذه الأمة نصب عينها ، أن نقل الرسالة من غيرها إليها ، إنما كان بسبب أن خاسوا بعهدهم مع الله ، وبدلوا سنة رسل الله ، وألبسوا الباطل ثوب الحق ، فحقت عليهم الكلمة ، وسلبهم الله النعمة .

فلتعد هذه الأمة إلى ربها ، ولتحافظ على مكانتها ولتنهض على منصبها بالنواجز ، ولتكن كما وصفها ربها : (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) .

وليكن فى حسبانها أن شهادة الرسول عليها ، إما مزكية ومصدقة لأعمالهم ، وإما أن تكون حجة عليها ومبطلة لعملها .

يقول الرازى : وذكر السدى أن أمة محمد ﷺ يشهدون للرسل بالبلاغ ، والرسول ﷺ يشهد لأمته بالتصديق[1] .

ويقول ابن كثير : وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو بكر بن أبى الدنيا ، حدثنا الصلت بن مسعود الجحدرى ، حدثنا فضيل بن سليمان حدثنا يونس بن محمد الأنصارى عن أبيه قال : وكان أبى ممن صحب النبى ﷺ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم فى بنى ظفر ، فجلس على الصخرة التى فى بنى ظفر اليوم ، ومعه ابن مسعود ، ومعاذ بن جبل ، وناس من أصحابه ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم قارئاً فقرأ ، فأتى على هذه الآية :

(فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً)[2] .

= - جمع آكل - إلى قصعة الطعام ، والغثاء بالضم : ما يحمله السيل ، ويضرب مثلا لما لا قيمة له ولا فائدة ، والوهن : الضعف .

(١) التفسير الكبير ٥/١٠٩ .

(٢) سورة النساء جزء من الآية : ٤١ .

فبكى رسول الله ﷺ حتى اضطرب لحياه وجنباه ، فقال : يارب ، هذا شهدت على من أنا بين ظهريه ، فكيف بمن لم أره ؟

وقال ابن جرير : حدثني عبد الله بن محمد الزهري ، حدثنا سفيان ، عن المسعودي ، عن جعفر بن عمر بن حريث عن أبيه ، عن عبد الله - هو ابن مسعود - (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) .

قال : قال رسول الله ﷺ شهيد عليهم ما دمت فيهم ، فإذا توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم[1] .

فمقام الشهادة عظيم ، ومكانتها رفيعة ، ودرجتها سامية ، ومنصبها خطير لا يقدره حق قدرة إلا من يعلم حق العلم هول هذا الموقف ، وعظم ذلك المشهد ، فإذا كان الرسول الأعظم والنبي الخاتم ، الذي غفرله ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، تذرف عيناه ، وتضطرب لحياه ، عندما يذكره ابن مسعود بهذه الآية ، فإذا يا ترى ستفعل تلك الأمة ، عند وقوفها أمام ربها والشاهد عليها هو رسولها ؟ .

روى الشيخان والترمذي عن عبد الله بن مسعود قال : قال لي النبي ﷺ إقرأ علي ، فقلت : أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ قال : فإني أحب أن أسمعه من غيري ، فقرأت عليه سورة النساء ، حتى بلغت قوله تعالى : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) قال : حسبك الآن فإذا عيناه تذرفان[2] .

وما من ريب في أن بكاء النبي ﷺ إنما هو من قبيل الشفقة والرحمة ،

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٦٩ .

(٢) صحيح البخاري - كتاب فضائل القرآن وكتاب التفسير .

التي وصفه بها ربه - جل وعلا - في كتابه الكريم حيث قال : (بالمؤمنين رءوف رحيم)[1] .

وإنما الريب حقا في موقف تلك الأمة التي اختارها الله - عز وجل - من بين الأمم ، واصطفاها على العالمين ، لتكون شاهدة على الناس بأن الله - سبحانه - قد أنزل الشرائع وبينها ، وأرسل الرسل فبلغوا ، هل ستقوم حق القيام بما نيط بها من الدعوة للحق والإرشاد للهدى فيكون الرسول ﷺ شاهداً مزكيا لهـــا ، أم أنها ستتمحل وتتقاعس ، فيكون النبي ﷺ حجة عليها ؟ .

يقول الشهيد سيد قطب : وكل من ينطق بالشهادتين لا يقال : إنه شهد ، إلا أن يؤدي مدلول هـذه الشهادة ومقتضاها ، ومدلولها هو أن لا يتخذ إلا الله إلهاً ، ومن ثم لا يتلقى الشريعة إلا من الله ... ثم يقول : وهو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمـــداً رسول الله ، ومقتضاه . . . . لا ما انتهى إليه مدلول هذه الشهادة من الرخص والتفاهة والضياع[2] . أين نحن الآن من هذه الأمة ؟

عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال : خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، قال عمران : فلا أدري ، أذكر بعد قرنه ، قرنين أو ثلاثة ، ثم إن بعدهم قوما يشهدون ولا يستشهدون ، ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السمن . زاد في رواية : ويحلفون ولا يستحلفون[3] .

---

(١) سورة التوبة بعض الآية : ١٢٨ .

(٢) ظلال القرآن ١/٤٨١ .

(٣) البخاري كتاب الشهادات - باب لا يشهد على جور ، عن عبد الله بن مسعود والمسند ١/٣٧٨ .

وكان المتوقع نتيجة هذه الميزة ، وأثر تلك الفضيلة ، أن تكون التبعة على هذه الأمة أشد منها على غيرها ، ولكن المنة والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

فقد كلفها الله بما هون وسعها ، وجعل لها عند الضيق فرجا ومخرجا ، وأراد الله بها اليسر ، ورفع عنها العسر ، وما جعل عليها فى الدين من حرج .

السمة الثالثة : (ما جعل الله عليها فى الدين من حرج) .

يقول الله تعالى :

(وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس)[1] .

أى : وجاهدوا حق الجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الحق ، الذى اختاركم ، واصطفاكم ، وأنزل عليكم من الملل أكملها وأيسرها ، ومن الرسل أعظمها وخاتمها ، وخصكم بعظيم فضله وذورة إحسانه ، فجعلكم شهداء على الناس ، وما جعل عليكم فى الدين من حرج . يقول الخازن : قيل أعطى الله هذه الأمة خصلتين لم يعطهما أحدا غيرها ، جعلهم شهداء على الناس ، وما جعل عليهم فى الدين من حرج)[2] .

ومما يحسن التنويه به : أن الله - سبحانه - ذكر الحديث عن الأمم السابقة بلفظة يا قوم - يا بنى إسرائيل - بينما قال لهذه الأمة : يا أيها الذين آمنوا ، وسماهم المسلمين فى كتب الأنبياء السابقين ، وفى القرآن الكريم يقول الله تعالى : (هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا) .

---

(١) سورة الحج آية ٧٨ .
(٢) لباب التأويل ٣/٢٩٩ .

يقول السيوطى : أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى الآية قال : لم يذكر بالإسلام والإيمان غير هذه الأمة ، ذكرت بهما جميعا ، ولم يسمع بأمة ذكرت بالإسلام والإيمان غيرها ، ثم قال : أخرج الطيالسى ، وأحمد ، والبخارى فى تاريخه ، والترمذى وصححه ، والنسائى ، والموصلى ، وابن خزيمة وابن حبان والباوردى ، وابن قانع ، والطبرانى ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن الحارث الأشعرى ، عن رسول الله ﷺ قال : من دعا بدعوى الجاهلية ، فإنه من جثاء جهنم ، قال رجل : يارسول الله ، وإن صام وصلى ، قال : نعم ، فادعوا بدعوة الله التى سماكم بها المسلمين والمؤمنين عباد الله[1] .

وأخرج ابن أبى شيبة عن عبد الله بن يزيد الأنصارى قال : سموا بأسمائكم التى سماكم بها بالحنيفية ، والإسلام ، والإيمان .

وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف ، وإسحاق بن راهويه فى مسنده ، عن مكحول أن النبى ﷺ قال : تسمى الله باسمين سمى بهما أمتى ، هو السلام وسمى أمتى المسلمين ، وهو المؤمن ، وسمى أمتى المؤمنين .

فهذه أمة سماها الله - عز وجل - المسلمين ، وجعل لها لسان صدق فى الأولين ، وزكاها على ألسنة الأنبيـــاء والمرسلين ، وغمرها بجوده وشملها بإحسانه وأحاطها بعنايته ورعايته ، وأعطاها ما لم يعط أحداً من العالمين .

ذكر الإمام أحمد عن أبى الدرداء أنه سمع أبا القاسم ﷺ يقول : إن الله تعالى يقول : يا عيسى ، إنى باعث بعدك أمة ، إن أصابهم ما يحبون ، حمدوا وشكروا ، وإن أصابهم ما يكرهون ، احتسبوا وصبروا ؛ ولا حلم ولا علم قال : يارب كيف هذا لهم ولاحلم ولا علم ؟ قال : أعطيهم من حلمى وعلمى[2] .

---

(١) الدر المنثور ٤/٣٧٢ وفتح القدير ٣/٤٧٢ وسنن الترمذى كتاب الأدب

(٢) المسند / ٢٨٦ .

السمة الرابعة : (رفع عنها الخطأ والنسيان) .

يقول الله تعالى :

(لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين)[1] .

يقول ابن كثير في تفسيره : لما نزلت على رسول الله ﷺ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير[2] .

قال جبريل : إن الله قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك ، فسل تعطيه ، فسأل لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . . . .[3] .

وقال الرازي في تفسيره : وروى الواحدي - رحمه الله - عن مقاتل ابن سليمان أنه لما أسري بالنبي - ﷺ - أعطى خواتيم سورة البقرة ، فقالت الملائكة : إن الله - عز وجل - قد أكرمك بحسن الثناء عليك بقوله (آمن الرسول . . .) فسله وارغب إليه ، فعلمه جبريل - عليهما الصلاة والسلام كيف يدعو ، فقال محمد ﷺ (غفرانك ربنا وإليك المصير) فقال الله تعالى : قد غفرت لك ، فقال : (لا تؤاخذنا) ، فقال الله : لا أؤاخذكم فقال : (ولا تحمل علينا إصراً) ، فقال : لا أشدد عليكم ، فقال محمد : (ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) ، فقال : لا أحملكم ذلك ، فقال محمد :

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٨٦ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٨٥ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ١/٥٠٨ .

(واعف عنا واغفر لنا وارحمنا) ، فقال الله تعالى : قد عفوت عنكم وغفرت لكم ورحمتكم وأنصركم على القوم الكافرين[1] .

من هذا نعلم أن الله - سبحانه وتعالى - علم هذه الأمة ذلك الدعاء ، فضلا منه ورحمة ، حيث خفف عنها ما فرضه على الأمم السابقة من التكاليف الشاقة ، والمواثيق الصعبة ، إلى غير ذلك من التغليظ والأغلال التي كانت على بني إسرائيل ، إذ كان الله - جلت قدرته - يعجل العقوبة للمخطئين منهم ، فكانوا يمسخون قردة وخنازير ، قال الله - تعالى - (فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين)[2] .

وقال - عزوجل - (من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها)[3] . بينما قال النبي - ﷺ - في شأن هذه الأمة :

« رفع عن أمتي المسخ والخسف والقرق » .

وكان الله - جل وعلا - يحرم عليهم بسبب خطئهم ما أحل لهم ، قال الله تعالى : (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم)[4] .

كما شرط عليهم قتل أنفسهم عند إرادة التوبة ، قال الله تعالى :

(فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم)[5] .

وحرم على المسافرين من قوم طالوت الشرب من النهر . قال الله تعالى : (فلما فصل طالوت بالجنـــود قال إن الله مبتليكم بنهر

---

(١) التفسير الكبير ٤/١٦٣ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٦٦ .

(٣) سورة النساء بعض الآية : ٤٧ .

(٤) سورة النساء جزء من الآية : ١٦٠ .

(٥) سورة البقرة آية ٥٤ .

فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى)[1] .

وكان الله عز وجل يعاقبهم على النسيان والخطأ ، بينما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى شأن أمته : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ، وفى رواية إن الله وضع . . .[2] وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تجاوز عن أمتى ما وسوست به صدورها ما لم تعمل أو تكلم به »[3] .

يقول الرازى : قال المفسرون : إن الله تعالى فرض عليهم خمسين صلاة ، وأمرهم بأداء ربع أموالهم فى الزكاة ، ومن أصاب ثوبه نجاسة ، أمر بقطعها ، وكانوا إذا نسوا شيئاً ، عجلت لهم العقوبة فى الدنيا . . ثم يقول : قال القفال: ومن نظر فى السفر الخامس من التوراة التى تدعيها هؤلاء اليهود ، وقف على ما أخذ عليهم من غلظ العهود والمواثيق[4] .

وذكر القاسمى أن سفر الخروج يشتمل على كثير من الأغلال والآصار التى أخذت على بنى إسرائيل[5] .

وإذا كان الله عز وجل قد كلف بنى إسرائيل بكل هذا ، وأنه قد عفا هذه الأمة من كل هذا فإنه يدل على أن رفع الحرج ، والعفو عن النسيان والخطأ فضيلة من الفضائل التى اختصت بها هذه الأمة دون سواها .

فعن ابن عباس قال : بينما جبريل قاعد عند النبى ﷺ سمع نقيضاً من

---

(١) سورة البقرة جزء من الآية : ٢٤٩

(٢) سنن ابن ماجه كتاب الطلاق ح ٢٠٤٥ ، ١/٦٥٩ .

(٣) التفسير الكبير ٤/١٥٨ .

(٤) مسلم كتاب الإيمان حديث ٢٠١ والمسند ٦/١٠٦ والطيالسى ح ٢٤٥٩ .

(٥) محاسن التأويل ٢/٣٩٣ .

فوقه ، فرفع رأسه فقال : هذا الباب من السماء فتح اليوم ، لم يفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك ، فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض ، لم ينزل قط إلا اليوم ، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك ، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ حرفا منهما إلا أعطيته[1] وأخرج الإمام أحمد ، والنسائي ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب بسند صحيح عن حذيفة أن النبي ﷺ كان يقول : « أعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش ، لم يعطها نبي قبلي »[2] .

ويقول القاسمي : أخرج عبد بن حميد في مسنده عن الحسن أنه كان إذا قرأ البقرة قال : يالك نعمة . . ! يا لك نعمة ![3] .

نعم ، إنها لنعم لو رزقنا الله سبحانه حسن شكرها ، ووفقنا إلى العمل بمقتضاها ، ومنحنا الإخلاص في القول والعمل ، وهدانا إلى طرق الإجابة ، وإلا كيف يرفع الإنسان يديه بهذا الدعاء الذي علمنا إياه رب السماء - قائلا: ربنا اعف عنا إثم ما يقع منا على جهة النسيان أو الخطأ، ربنا ولا تحمل علينا ثقلا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به من التكاليف ، واعف عنا ذنوبنا ، واغفر لنا خطايانا ، وارحمنا بإنعامك علينا في الدنيا ، والعفو في الآخرة ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .

وهو غير مسلح بسبل الاستقامة ولا معد لموطن الإجابة ، فيكون ممن قال الله تعالى فيهم : (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون)[4] .

---

(١) مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ح ٢٥٤ .

(٢) المسند ٥/١٥١ ط الحلبي وفتح القدير ١/٣١٠ .

(٣) محاسن التأويل ٢/٣٩٣ .

(٤) سورة الصف الآيات ٢ ، ٣ .

السمة الخامسة : (رفع عنها عذاب الاستئصال) .

يقول الله تعالى :

(وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون)[1] .

نزه الله عز وجل هذه الأمة بفضل نبيها ﷺ عن أمر جرت به سنته فى عباده الذين انحرفوا عن الجادة ومالوا عن الطريق المستقيم ، وهو إنزال العذاب الذى لا يبقى منهم باقية ، والذى يسجل عليهم الخزى ويطبع عليهم العار مدى الأيام والدهور .

يقول الله جل وعلا فى شأن نوح عليه السلام : (فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون ، ثم أغرقنا بعد الباقين)[2] .

ويقول سبحانه فى شأن قوم هود عليه السلام : (فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى)[3] .

ويقول فى شأن قوم صالح عليه السلام : (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون)[4] .

ويقول فى شأن قوم لوط عليه السلام : (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود)[5] .

---

(١) سورة الأنفال آية : ٣٣ .
(٢) سورة الشعراء آية : ١١٩ ، ١٢٠ .
(٣) سورة فصلت آية : ١٦ .
(٤) سورة فصلت آية : ١٧ .
(٥) سورة هود الآية ٨٢ .

وقال فى شأن قوم شعيب عليه السلام : (فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم)[1] .

وقال فى شأن قوم موسى عليه السلام : (وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين)[2] .

فدل هذا على أن هذه الأمة مخصوصة بتلك الفضيلة ، حيث إن أممًا سالفة قد نفذ فيها حكم الله وحق عليها الوعيد .

وذلك ؛ لأن رسول الله ﷺ أرسله ربه رحمة للعالمين ، قال تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)[3] .

ووصفه ربه فى كتابه الكريم بقوله : (بالمؤمنين رءوف رحيم)[4] .

والرحمة والعذاب ضدان لا يجتمعان ، ولذلك لما آذوه وأدموا قدميه وأخرجوه من بلده ، وكسروا رباعيته ، قال : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون ولم يقل كما قال نوح عليه السلام : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا)[5] .

يقول الألوسى : فالمراد من الآية ، الإخبار بأن تعذيبهم عذاب استئصال والنبى ﷺ بين أظهرهم ، خارج عن عادته تعالى ، غير مستقيم فى حكمه وقضائه[6] .

---

(١) سورة الشعراء آية ١٨٠ .
(٢) سورة الشعراء الآيتان : ٦٥ ، ٦٦ .
(٣) سورة الأنبياء الآية : ١٠٧ .
(٤) سورة التوبة بعض الآية ١٢٨ .
(٥) سورة نوح آية : ٢٦ .
(٦) روح المعانى ٩/ ٢٠٠ .

وقال أبو حيان : أخبر تعالى أنهم مستحقوا العذاب ، لكنه لا يعذبهم وأنت فيهم إكراماً له ، وجرياً على عادته تعالى مع مكذبي أنبيائه ، أن لا يعذبهم وأنبياؤهم مقيمون فيهم عذاباً يستأصلهم فيه .

قال ابن عباس لم تعذب أمة قط ، ونبيها فيها ، فالمعنى . فما كانت لتعذب أمتك وأنت فيهم ، بل كرامتك عند ربك أعظم ، وقال تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ومن رحمته تعالى أن لا يعذبهم والرسول فيهم)[1] .

وأخرج الترمذي عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنزل الله على أمانين لأمتي : (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة[2] .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ، ـ رضي الله عنهما ـ قال : إن الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين من قوارع العذاب ما داما بين أظهرهما ، فأمان قبضه الله تعالى إليه ، وأمان بقي فيكم ، قوله : (وما كان الله ليعذبهم ..... الخ .) الآية .

وأخرج الإمام أحمد عن فضالة بن عبيد ـ رضي الله عنه ـ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « العبد آمن من عذاب الله ما استغفر الله »[3] .

---

(١) البحر المحيط ٤/٤٨٩ .

(٢) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة الأنفال ـ الحديث ٥٠٧٧ ـ ٨/٤٧٢ وقال الترمذي : هذا حديث غريب .

(٣) المسند ٦/٢٠ .

وأخرج أبو داود والترمذي في الشمائل ، والنسائي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : انكسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فصلى رسول الله ﷺ فقام فلم يكد يركع ثم ركع ، فلم يكد يسجد ، ثم سجد ، فلم يكد يرفع ، ثم رفع ، وفعل في الركعة الأخرى مثل ذلك ، ثم نفخ في آخر سجوده ، ثم قال : رب ألم تعدني أن لا تعذبهم وأنا فيهم ، رب ألم تعدني أن لا تعذبهم وهم يستغفرون ، ونحن نستغفرك ، ففرغ رسول الله ﷺ من صلاته ، وقد انجحرت الشمس[1] .

فقد جعل الله - سبحانه - الاستغفار سبباً لأمان تلك الأمة من العذاب . والاستغفار هو : طلب المغفرة من الله - عز وجل - وقد مدح الله المستغفرين في كتابه الكريم حيث قال في مدح المتقين :

(والمستغفرين بالأسحار)[2] .

وقال : (وبالأسحار هم يستغفرون)[3] .

وقال : (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم)[4] .

وقد كان النبي ﷺ - يستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة[5] .

وهذا الثواب العظيم ، والأجر الجزيل الذي رتبه الله على الاستغفار ، ليس لمجرد النطق بهذا اللفظ ، بل بعد الاعتصام بحبل الله ، والوقوف عند حدود الله ، والدفاع عن شرع الله ، ومن هنا استغفر رسول الله ﷺ

---

(١) المسند ٢/١٨٨ .
(٢) سورة آل عمران آية : ١٧ .
(٣) سورة الذاريات آية : ١٨ .
(٤) سورة آل عمران جزء من آية ١٣٥ .
(٥) البخاري الدعوات عن أبي هريرة .

وحث عليه حيث قال :

« من لزم الاستغفار ، جعل الله له من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب »[1] .

السمة السادسة : (تأمر بالمعروف وتنه عن المنكر وتؤمن بالله) .

يقول الله تعالى :

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)[2] .

يقول صاحب المنار : بعد ما أمر الله تعالى بالاعتصام بحبله ، وذكر بنعمته على المؤمنين بتأليف القلوب ، وأخوة الإسلام ، وبعد ما نهى عن التفرق فى الأهواء ، والاختلاف فى الدين ، وتوعد على ذلك بالعذاب العظيم بين فضل المعتصمين بحبله ، المتآخين فى دينه ، المتحابين فيه ، ووصفهم بهذا الوصف الشريف[3] .

وقال الطبرسى : وإنما قال (كنتم) لتقدم البشارة لهم فى الكتب الماضية عن الحسن ويعضده ما روى عن النبى ﷺ أنه قال : « أنتم وفيتم[4] سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله »[5] .

---

(١) أبو داود ٣٤٨/١ والمسند ١٤٨/١ ، ٣٤٨ والترمذى دعوات ١١٧ .

(٢) سورة آل عمران جزء من الآية : ١١٠ .

(٣) المنار ٤٧/٤

(٤) وفى رواية : تممون .

(٥) قال الحافظ بن حجر فى الفتح : حديث حسن صحيح ، أخرجه الترمذى وحسنه ، وابن ماجه ، والحاكم وصححه ، وهو حديث مشهور ، ويروى من حديث معاذ بن جبل وأبى سعيد نحوه ، وهو فى المسند ٤٤٧/٤ .

ثم يقول : إن كان بمعنى صار ، ومعناه صرتم خير أمة خلقت ، لأمركم بالمعروف ونهيكم عن المنكر ، وإيمانكم بالله ، فتضير هذه الخصال على هذا القول شرطا فى كونهم خيرا ، وقد روى عن بعض الصحابة أنه قال : من أراد أن يكون خير هذه الأمة ، فليؤد شرط الله فيها ، من الإيمان بالله ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر (١) .

فهذه فضيلة ، وخصلة محمودة يجب على الأمة أن تحافظ عليها قد تكون خير أمة ، وذلك بكل ما تتضمنه هـــذه اللفظة (وتؤمنون بالله) ، والأمر بالمعروف بكل أنواعه وأغراضه ، والنهى عن المنكر بجميع أشكاله وألوانه .

روى عن النبى ﷺ أنه قال : « من أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، كان خليفة الله فى أرضه ، وخليفة رسوله ، وخليفة كتابه .

وأخرج مسلم ، والبيهقى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : إن الله يرضى لكم ثلاثا ، ويسخط لكم ثلاثا ، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ، ويسخط لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال وإضاعة المال » (٢) .

وروى عن رسول الله ﷺ أنه سئل من خير الناس ؟ فقال : « آمرهم بالمعروف ، وأنهاهم عن المنكر ، وأتقاهم لله ، وأوصلهم للرحم » (٣) .

وفى تفسير الرازى قال : وعن على - رضى الله عنه - أفضل الجهاد ، الأمر

---

(١) مجمع البيان ٢/٤٨٦ .

(٢) مسلم - كتاب الاقضية ح ١٠ والموطأ فى الجامع عن سهيل بن أبى صالح .

(٣) البخارى - كتاب بدء الخلق باب (واتخذ الله إبراهيم خليلا) عن أبى هريرة .

بالمعروف والنهى عن المنكر .. وقال : وروى الحسن عن أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : يا أيها الناس ، ائتمروا بالمعروف ، وانتهوا عن المنكر ، تعيشوا بخير[1] .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من رأى منكم منكراً ، فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان ، وفى رواية : « وليس وراء ذلك من الإيمان حبة »[2] .

أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن على قال : قال رسول الله ﷺ أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء ، نصرت بالرعب ، وأعطيت مفاتيح الأرض ، وسميت أحمد ، وجعل التراب لى طهوراً ، وجعلت أمتى خير الأمم[3] .

ويقول ابن كثير : فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات ، دخل معهم فى هذا الثناء عليهم ، والمدح لهم ، كما قال قتادة : بلغنا أن عمر بن الخطاب فى حجة حجها ، رأى من الناس رعة[4] فقرأ هذه الآية : (كنتم خير أمة ...) ثم قال : من سره أن يكون من تلك الأمة ، فليؤد شرط الله فيها ـ رواه ابن جرير ـ ومن لم يتصف بذلك ، أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله :

(كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) الآية ، ولهذا لما مدح تعالى هذه الأمة على هذه الصفات ، شرع فى ذم أهل الكتاب وتأنيبهم فقال :

---

(١) التفسير الكبير ٨/١٨٣ - ١٨٤ .

(٢) مسلم ـ كتاب الإيمان ١/٥ عن أبى سعيد الخدرى .

(٣) المسند ١/٩٨ .

(٤) فى الطبرى ٧/١٠٢ ، رعة سيئة ، وفسرت الرعة ـ بكسر ففتح ـ بأنها سوء أدب .

(ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم)[1] .

وتكمن فضيلة هذه الأمة ، وشرفها ، وكرامتها عند الله ، وأنها خير الأمم فى الدنيا والآخرة بمدى تمسكها بهذه الأصول الثلاثة ، فإذا تهاونت فى أى منها ، كان ذلك سبباً فى تفرقها ، وضياع حقوقها ورفعت عنها سمة المدح ووضعت لها صفة الذم ، وحق عليها الهلاك والضياع .

يقول القرطبى عند تفسيره لقول الله تعالى : (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) مدح لهذه الأمة ، ما أقاموا ذلك ، واتصفوا به ، فإذا تركوا التغيير ، وتواطأوا على المنكر ، زال عنهم اسم المدح ، ولحقهم اسم الذم ، وكان ذلك سبباً لهلاكهم[2] .

ويقول المراغى : إن هذه الخيرية لا تثبت لهذه الأمة ، إلا إذا حافظت على هذه الأصول الثلاثة ، فإذا تركتها ، لم تكن لها هذه المزية[3] .

ويقول صاحب المنار : ولكن هذه الخيرية لا يستحقها من ليس لهم من الإسلام وأتباع النبى ﷺ إلا الدعوى ، وجعل الدين جنسية لهم ، بل لا يستحقها من أقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، وصام رمضان ، وحج البيت الحرام ، والتزم الحلال ، واجتنب الحرام مع الإخلاص الذى هو روح الإسلام ، إلا بعد القيام بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وبالاعتصام بحبل الله ، مع اتقاء التفرق والخلاف فى الدين[4] .

لو تم هذا ، ونفضت هذه الأمة الكسل والتكاسل ، ونبذت الذلة

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/٨٦ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣/١٤١٣ - ١٤١٥ .
(٣) تفسير المراغى ٤/٣٠ .
(٤) المنـــار ٤/٧٤ .

والمسكنة ، وتركت التواني والخمول ، ومحت الانزواء والانطواء الذى جرى فيها مجرى الدم وامتثلت لأمر الله ، لعادت لوضعها الطبيعى واستردت مكانها المغصوب وأصبحت فى عيشة راضية ، قال تعالى :

(ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين)[1] .

وأما إذا لم يتم هذا ، واستسلمنا ورضينا بالواقع ، فالوراء ، الوراء ، أكثر مما نحن فيه .

عن حذيفة بن اليمان ، أن النبي ﷺ قال : « والذى نفسى بيده ، لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ، ثم لتدعنه فلا يستجاب لكم »[2] .

وقال الطبرسى : قال أبو الدرداء : لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم سلطانا ظالما ، لا يجل كبيركم ، ولا يرحم صغيركم وتدعوا خياركم فلا يستجاب لهم ، وتستنصرون فلا تنصرون ، وتستغيثون فلا تغاثون وتستغفرون فلا تغفرون[3] .

وإذا كان الله - عز وجل - قد خص هذه الأمة بالكرامة والأثرة ، ورسمها فى الكتب السابقة بالأمة المرحومة ، فلم لا نمض على هذه الصفات بالنواجز ، ولها فيها الخير الكثير فى الدنيا والآخرة ؟ .

ويحدثنا التاريخ : أن هذه الأمة عندما كانت كما رسم لها خالقها ، قصدت لقيادة البشرية طيلة استمساكها بقوانين السماء ، وظلت محتفظة بكيانها

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٣٩ .

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه ، من حديث عمرو بن أبى عمرو ، وقال الترمذى حسن . تحفة الأحوذى ٦/٣٩٠ .

(٣) مجمع البيان ٢/٤٨٤ والحديث فى الترمذى كتاب الفتن عن قتيبة .

وكينونتها إلى أن حادت عن الجادة ومالت عن الطريق السوى ، فبدلها الله - سبحانه - بعد الأمن خوفا ، وبعد الشبع جوعا ، وبعد الثراء فقراً ، وبعد الفرج ضيقا ، وبعد اليسر عسرا ، ووكل أمرها إلى غيرها ولن تغلب هذه الأمة من قلة .

يقول القاسمى : قال ابن القيم : إنه لا ينال أحد ذرة من الخير فما فوقها إلا بفضله ورحمته ، ولا ذرة من الشر فما فوقها ، إلا بعدله وحكمته[1] .

ويقول الشهيد سيد قطب : ولقد ظلت هذه الأمة وصية على البشر ، طالما استمسكت بذلك المنهج الإلهى ، وطبقته فى حياتها الواقعية ، حتى إذا انحرفت عنه وتخلت عن تكاليفه ، ردها الله عن مكان القيادة إلى مكان التابع فى ذيل القافلة وما تزال ، ولن تزال ، حتى تعود إلى هذا الأمر الذى اجتباها له الله[2] .

وبعـــد :

فإنى أهيب بأهل الحل والعقد فى الأمة المسلمة - من أدناها إلى أقصاها - أن ينبذوا الخلاف ، ويدعو التفكك ، ويتركوا الشطط وأن يقفوا على كلمة سواء ، منبعها رسوخ عقيدتهم وعمق إيمانهم ، ومصدرها صفاء أفئدتهم ونقاء قلوبهم .

يقول الله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون)[3] .

---

(١) محاسن التأويل ٢/٣٩٣ .
(٢) ظلال القرآن ٤/٢٤٤٦ .
(٣) سورة آل عمران الآية : ١١٨ .

ويقول الرسول ﷺ (لن تؤمنوا - تحابوا)[1] .

روى أن نفراً من الأوس والخزرج ، كانوا جلوساً يتحدثون ، فمر بهم شاس بن قيس اليهودى ، فغاظه تألفهم واجتماعهم ، فأمر شابا من اليهود أن يجلس إليهم ويذكرهم يوم بعاث وينشدهم بعض ما قيل فيه . وكان الظفر فى ذلك اليوم للأوس ، ففعل ، فتنازع القوم ، وتفاخروا ، وتغاضبوا ، وقالوا : السلاح السلاح ، واجتمع من القبيلتين خلق عظيم وغضب الفريقان غضباً عظيما .

فتوجه إليهم رسول الله ﷺ وأصحابه وقال : « أتدعون الجاهلية ، وأنا بين أظهركم ، بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، وألف بين قلوبكم » ؟ .

فعلموا أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فألقوا السلاح ، واستغفروا ، وعانق بعضهم بعضاً وانصرفوا مع رسول الله ﷺ وأنزل الله عز وجل قوله :

(يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم)[2] .

فهذا وعد الله - ولن يخلف الله وعده - بالهداية إلى سبل الاستقامة ما دام كتابه قائماً بيننا . حاكما فى أمورنا مهيمنا على شئوننا وسنة رسوله ﷺ موضوعه نصب أعيننا ومسمع آذاننا وملمس أيدينا .

وفى نشوة الإسلام وأوج صباه وريعان شبابه كان المسلمون كالجسد

---

(١) مسلم - كتاب الإيمان ... وابن ماجه - المقدمة - والمسند ١/١٦٤ .

(٢) سورة آل عمران الآيتان : ١٠٠ ، ١٠١ .

الواحد إذا اشتكى منه عضو ، تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى[1] ـ كما كانوا كالبنيان يشد بعضه بعضا[2] .

وأخـــيراً ...

هل فى الإمكان أن ترى المسلمين الآن أمة واحدة كما كانوا ؟

نعم .. إن أرادوا . وليس ذلك على الله ببعيد .

وهل ينتصر المسلمون الآن على أعدائهم ؟ .

نعم .. إن لجأوا إلى القوة التى لا تدانيها قوة ... الله .

أليس الله بعزيز ذى انتقام ؟

وصدق الله العظيم إذ يقول على لسان مؤمن آل فرعون :

(فستذكر ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد) .

دكتور

أبو عبد الله أبو سريع بن محمد

---

(١) معنى حديث فى المسند ٤/٢٦٨ والطيالسى ح ٥٠٣ .

(٢) معنى حديث فى صحيح البخارى ـ كتاب المظالم وكتاب الصلاة ومسلم فى الأدب .